نار وأصفاد

شعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل

عرضه وتحليل الأستاذ سعيد حمزة مكرم المحامى

فى السنوات الأخيرة نهج فريق من الكتاب منهجاً معيناً فى النقد الأدبى ، يلح إلحاحاً مريباً على التفرقة بين الشكل والمضمون فى الأثر الأدبى !

وفى غمرة حماسه لموضوع العمل الفنى أو مضمونه أو محتواه — على اختلاف بينهم فى التسمية — نسى الشكل أو كاد ، وكلما عظم نفوذ هذه الطائفة من نقادنا كلما زحمتنا صور مكرورة لجوانب معينة من الحياة فى ألوان معينة من التعبير ، أوشكت لكثرة ماترددت أن تصبح مجرد شعارات « كليشيهات » فقدت جدتها وجديتها على السواء .

على أن الأدب — فيما نرى — أكبر من أن « تحدد إقامته » على هذا النحو فى قطاع معين من الحياة . ونحن نجله عن أن يكون « نشرة دعاية لاتجاه سياسى أو اجتماعى بذاته ، أو أن يهبط مسفاً فى شكله أو مضمونه ، وما ينبغى له فى الوقت نفسه أن يكون خطابة أو وعظا ! ! وإذا كانت هذه النظرة الجانبية للأدب قد راجت سوقها فى هذه الأيام فإنه لاتزال هناك قلة تسمو بالأدب فوق كل هذه المستويات وفى طليعة هذا الفريق البصير بطبيعة الأدب وماينبغى له فى شكله ومضمونه صاحب « نار وأصفاد »

فالشاعر محمود حسن اسماعيل أشبه بالطائر الحر الطليق ، لايكاد يستقر على غصن حتى يقفز إلى آخر ، وهو دائماً لايهدأ إلا أن يجوب الآفاق بالحانه ، ينظم فى كل فنون الشعر العربى تقريباً ، مكثراً فى جانب ومقلا فى آخر ، ولكنه محلق فى كل حال .

وديوانه الذى بين أيدينا اليوم يكاد يغلب عليه الطابع الوطنى أو القومى إذ

يرصد ويتابع أحداثنا السياسية والاجتماعية الكبيرة التى أثرت وتأثرت بأوضاعنا العامة منذ سنة ١٩٤٠ حتى الآن .

وعلى الرغم من أن شعر الديوان فى مجموعه يكاد يكون شعر « مناسبات » فقد استطاع محمود حسن إسماعيل أن يصوغ صداها فى نفسه ووجدانه شعراً حافلا باللفتات الإنسانية الصادقة .

ولقد كانت الحرية دائماً ضالة الشاعر ، مابرح يفتقدها ، ويحن إليها ، ويولى وجهه شطرها حيثما تراءت له فى الآفاق ، وكان طبيعياً أن يلتقى على قمة طريقها الطويل « بنبى الحرية » ومن هناك راح يحكى قصة الظلام الذى تاهت الحرية فى غياهبه ! . وإذا الناس — وقد أحاط بهم ضلالهم البعيد — يعكفون على آلهة من صنع خيالهم الحبيس ، ويضيق الشاعر بهذه الآلهة الذليلة حين لايرى فى نار المجوس سراً يغريهم بتقديسها ، وحين تصطدم قدماه بتمثال تمنو له جباه القوم لايملك نفسه من أن يجبهه بهذه الكلمات بل السياط ! !

صنم أنت أم صفاة ؟ اجبنى
ما لجفنيك ساهتان لجفنى
ما لكفيك فى هوان وجبن
شلتا — ياأصم — بالله دعنى
من ربوبية زعمت وفن كيف ياشىء قدستك الصحارى

ألا تشفق معى على « الحجر » من وقع هذه الكلمات القوارع ؟ ! ثم ألا ترى إلى الشاعر يركز عصارة كل كلمات السخرية والإستهجان فى كلمة مرة ساحقة حين يناديه : ياشىء !! فليكن الصنم بعد ذلك عملاقا أو قزما فهو على كل حال كائن هزيل تافه ! إنه « شىء » كما يقول الشاعر !!

وكلما توالت الأعوام على الشاعر ، ووجد نفسه وجها لوجه مع يوم الهجرة ، هجرة نبى الحرية بدينه وحريته ، هاجته الذكرى الخالدة ، استسلم لأشجانه تحلق به فى آفاق الأساطير الدينية الجميلة ، وعلى سديم هذه الآفاق يرسم بريشته الصناع صوراً

تكاد تجرى فى ألوانها الحياة ، فهذا مشهد يغنى فيه العنكبوت ، وثان يتناجى فيه الحمام ، وثالث يعتذر فيه الثعبان !!

وفى معارك الحرية يشارك الشاعر محمو حسن إسماعيل بنشيده وقصيده ، وفى هذا القسم من ديوانه يبدأ بقيصدته « الموءودة » وهو يعنى الحرية ، الحرية التى وأدها الطغاة فانسربت روحها هاربة إلى حيث لايدرى ! وعبثاً يحاول أن « يتلمس لها شعاعاً فى فجاج الوجود ويبحث عنها بين لهيب الأصفاد » كما يقول ، بحث عنها فوق الثرى فى واقع الناس ، وأخذ يضرب فى المجهول من خيال الحالمين ، ومضى يطرق « أبواب السلام » ولم يدع كائنا لم يسأله عنها « حتى الزمن » ومع ذلك فقد ضل إلى الحرية « وانتهى بحثى عنها للعدم » !!

رحلة جاهدة عابسة وعلى الرغم من أن حصادها كان اخفاقا مريراً فإنها لم تخل من « مكاسب » هى هذه اللمسات الإنسانية العميقة التى عرض لها الشاعر فى طريقة لقد وجد كل من التقى به يعانى هو الآخر أزمة نفسية وشعورية حادة ، هى وليدة افتقاده للحرية ، الحرية بأبعادها القريبة والبعيدة . . حتى الريح شكت إليه بثها !!

ثم قالت إننى طوافة هكذا منذ تعلمت الرحال
وحطامى فى يد مجنونة تهب الأفق ولا تدرى المآل
وعصا عمياء تغتاب الصدى لم تزل تنشد بى أرض الزوال

حرية كبيرة ! تنتهى به إلى حيرة كبيرة !! هى بعينها القيد الكبير !!

وحين يلتقى الشاعر بالنجم يسأله هل هو حر ؟ يشير إلى فلكه ليقول : إنه « راسف حيران فى دورته » !!

زورق عان عان ولا ريح ولا شاطىء يرسو على ضفته
من قديم لم يعد ربانة وهو مصلوب على لجته

إنه لون آخر من ألوان الحرية واسع سعة الأفلاك ومع ذلك يحس النجم فى رحابه أنه راسف عان مقيد !!

حتى الطليقات من بنات الطير هن الأخريات سجنيات هذا الفضاء العريض وأرض الله الواسعة !! وهذه « حرة » منهن تقول للشاعر :

لو جنا حاى على بأسهما يصرعان القيد ماجبت الفضاء
يأسر الليل جناحى والردى إذ يجىء أشربه حبا ودماء

وبعد ألوان من المعاناة والتجربة يطلق شاعرنا هذه النفثة المحزونة المتعبة :

دميت نفسى من طول السرى وأنا أبحث والقيد معى
كلما زحزحته من قدمى أنشبت أظفاره فى أضلعى
أينما لذت عوت أجراسه بصدى كالسهم يفرى مضجعى
فى دمى قيد وقيد فى فمى وعلى الأجفان قيد الأدمع

ولكن الشاعر لايخلد إلى القنوط والعجز ، وما ينبغى له أن يفعل والنيل العملاق عن كثب يمارس حريته الكبيرة فى التدفق بالخير من منبعه إلى المصب ، وما أحفل قصة حريته هذه بالأسرار !!

دس أسرار قلبه وحكاها للشواديف والربى والطيور
وروى للرواة من عهد موسى قصة الظل واختلاج الهجير
أيها الكاهن المحمل بالأسرار أطلق جناحها لبخورى
أنا أحرقت كل مسكى وأعوادى ومازلت دائراً حول سورى
اطأ العشب والرمال وآتيك أما فرجة لهذا الأسير

وعلى الدرب الطويل — درب الحرية السلبية — « وبين الخيام والظلام وهديه السيول فى أرض المواج » يلتقى محمود حسن اسماعيل بقوم :

كانوا بأوطانهم كالناس وانتبهوا فما هم من وجود الناس إن ذكروا
مشردون بلاتيه فلو طلبوا تجدد التيه فى الآفاق ماقدروا
يلقى الشريد فجاج الأرض واسعة لكنهم بمدى اتعاسهم حشروا . .

كانوا كالناس — كما يقول الشاعر — وياضيعة قوم « كانوا » يوماً ما « ناساً » وهم بعد فى عداد الأحياء !!

وفى قصيدة « خيمة البهتان » يستصرخ لاجىء أخاه العربى ويشكوا إليه بثه ...

أخى قد مزقت ريح الدجى بيتى وأيامى
وساقتنى على الأرض بهذا الهيكل الدامى
وهذا الشبح المطرود فى هذا الأسى الطامى

ينادى أين ملك الله تخبط فيه أقدامى
وأين الأرض تحملنى وتدفن بعض آلامى
وبعض خطاى فى هذا الدجى المتفجر الهامى

أرأيت إلى هذا العربى الإنسان ، يقف مبهوتاً يقلب كفيه بعد أن « مزقت ريح الدجى بيته وأيامه » ! ! ماذا يفعل وقد فقد كل شىء ولا من مهرب من سياط الأعاصير !! لقد انطلقت من أعماقه صرخة يائسة مسترحمة : أين ملك الله ؟ ! أين الأرض فما عادت قدماه تطمئنان إلى مكان بعد أن أنكرته حتى مواطىء الاقدام ! !

أخى قد غال ذئب الجوع أطفالى مع الفجر
وبعثرهم جنون السيل بين مداخل الصخر
فلا أدرى لهم شجنا على نعش ولاقبر
كما كانوا هنا عادوا بلا سكن ولا عمر
ظللت أنوح يارباه بعض نداك للجمر
فجاء الموت يفغر فاه للظلمات والقفر

أرأيت مرة ثانية إلى الإنسان العربى وقد ذهبت نفسه حسرات على أطفاله « يبعثرهم » السيل المجنون بين حجور الصخر ومداخله !! وما أبشع أن يبعثر آدميون هكذا فى الفلاة !! حتى مجرد الشجن قد حرمه اللاجىء العربى فلم يشيع أطفاله بل لا يعرف لهم قبرا وكل الذى يدريه أنهم ضاعوا أمواتاً كما ضيعوا أحياء ! !

قصيدة كأنها اللحن الجنائزى لا يستطيع قارؤها أن يحبس دمعة كلما تدالت أمامه مشاهد مأساة « خيمة البهتان » !!

وبعد فقد أخذ الدكتور محمد مندور فى « ميزانه الجديد » على شعر محمود حسن اسماعيل ما فيه من « رنين قوى » يجنح به إلى الخطابة ، ونحن من جانبنا لا ننكر ما لحظه مندرر من (بسطة أوزانه وضخامة ألفاظه) .

ولكننا نرى أن هذه الرصانة ليست مادامت لم تعوق انسياب العاطفة الصادقة فى شعر الشاعر وما دمنا لا نفتقد الوتر الهامس فى كثير من ألحانه .

ونحسب لو أن الدكتور مندور أقام ميزانه لديوان « نار واصفاد » لرجع عن كثير من أرائه السابقة فى شعر محمود حسن اسماعيل ، بل لاهتز وجدانه معنا لما ترسله قيثارته المبدعة من ألحان .

فهم الصوفية لمقامات الرسول

للصوفية مجالات واسعة فى تعمقهم وفهمهم لمقامات الرسول ومكانته عند ربه وما اختص به دون العالمين .

ومما استنبطوا من خصوصية صلوات الله وسلامه عليه عند ربه سبحانه أن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل فقال : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى » ونودى محمد صلوات الله عليه بلا سؤال : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك » .

ويقول الصوفية أن الله عز وجل خاطب جميع الخلق ، ودعاهم إليه ودلهم عليه بذكر الملك والملكوت ، فقال جل جلاله : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » وقال سبحانه : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » وقال عز من قائل : « أفلم يتفكروا فى أنفسهم » وقال : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » .

فلما خاطب رسولنا صلوات الله عليه قال : « ألم تر إلى ربك » يامحمد « كيف مد الظل » فلما كان الخطاب مع الحبيب بدأ بذكره فقال . « ألم تر إلى ربك » .

وقال الصوفية أيضاً : إن آدم عليه السلام لما ذكر الله توبته قال : وعصى آدم ربه فغوى » فذكر جنايته قبل توبته : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

وذكر أيضاً خطيئة داود عليه السلام ثم قال : « فغفرنا له » وكذلك أخبر عن سليمان عليه السلام : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب قال ربى اغفر لى » وقال لنبينا صلوات الله عليه : عفا الله عنك لم أذنت لهم » قال الصوفية . آنسه بذكر العفو حتى لا يوحشه ذكر العقاب وقال أيضاً : ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر » فابتدأ بذكر لغفران قبل الذنب ، وغفر له الذنب قبل أن يذنب .

وذلك من منهجهم فى فهم مقامات من أرسله ربه رحمة للعالمين .